الأمير شكيب أرسلان
وحركة الاصلاح

للأستاذ رفائيل بطي

فقد العرب والمسلمون فى هذه الأيام شخصية متوهجة جبارة من الشخصيات التى عرفها عصر النهضة الحديثة عند العرب ، فقامت بنصيبها من العمل الكبير فى نواحى التحرير السياسى ، أو إيقاظ الرقود ، وبعث الهمم فى النفوس ، أو إبراز عبقرية هذه الأمة فى العلوم والآداب والفنون ، بحيث انبثق من هذه المساعى المشتركة والمتواصلة فجر الانبعاث الذى ينير لنا طريق المستقبل للناطقين بالضاد .

ومما يؤسف له أن هذا الطراز من رجال العلم والعمل قد قل فى العهد الأخير فصرنا كلما فقدنا واحداً منهم لا نجد من يشغل مكانه أو يسد الفراغ الذى أحدثه فقدانه . ولا سيما هؤلاء النوابغ الذين دفعتهم علو همتهم وأسعفتهم مواهبهم فجمعوا إلى التبحر فى اللغة والتمكن من أسرار البيان فحولة فى النظم والنثر ، ومعرفة واسعة بما يتصل بقومهم وعشائرهم ودينهم من تاريخ ، وخبرة بشؤونهم العامة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، يتوج كل هذه القابليات حماسة فى الكتابة والتأليف ، حبا بأن يشارك القراء الكاتب أو الباحث فى صنوف المعارف التى تفيض بها صدورهم . ولعل فقيد العروبة والإسلام الأمير شكيب أرسلان خير مثال لهذه الطبقة من أعلام اليقظة .

تعددت مجالى النشاط الذى أخذ به أمير البيان لتنوير الأذهان ، وبعث الأمجاد الخالية ، وتوجيه الأفكار نحو طرق النهوض والإصلاح ، فقد عنى فى أول نشأته باللغة والأدب فنشر (الدرة التيمية) لابن القفع من أول عهد شدا فيه الأدب قبل نحو خمسين سنة . ثم عالج الشعر فنظم فى أبوابه المتنوعة وجرت له مساجلات ومراجعات فى القصيد مع بعض شعراء جيله ، منهم محمود سامى باشا البارودى ، الذى انعقد له لواء الزعامة فى تجديد ديباجة الشعر العربى البليغ بعد أن أخلقت وعفى عليها الزمن بالركاكة والغثاثة . ومع أن الأمير لم يتفرغ للنظم لتوزع قريحته فى أمور ومسائل متعددة بحيث كان مصليا فى حلبة الشعر ، فإن ما خلفه من القصائد الحسان يعبر عن سليقة خصبة ، وطبع سليم مؤات لجيد المنظوم .

واستحكام أواصر المودة بين أمير البيان وأمير الشعراء ، مما سجله قلم الكاتب العظيم فى كتابه : (شوقى أو صداقة أربعين عاما) يدل على تجاوب روحى بين هذين العلمين النيرين .

ولما اشتد ساعد شكيب ونضج فكره ، دفعه حب الاستطلاع وروح الغيرة المتقد فى ذهنه ، إلى الاتصال بالصفوة المختارة من رواد النهضة والإصلاح ، ولا سيما السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ طاهر الجزائرى ، فاقتبس من أنوارهم ، وتثقف من مبتكراتهم ، وتطلع إلى سعة آفاقهم ، ما أنشأه هذه النشأة الحافلة فظل حياته مهموما بدراسة علل تأخر العرب والمسلمين ، وسر تقدمهم فى العصر الحوالى ، ووسائل إنهاضهم من كبوتهم . وكم جرى قلمه بمقالات وبحوث ، ووعت تواليفه من آراء وخطط تجرى فى هذه المسالك الرشيدة ، والمتابع لسيرة الرجل يجد أنه لم يقصر همه على الكتابة والتأليف فى السعى مع الساعين لخلق النهضة الجديدة ، إنما خاض غمار مداولات مع رجال الدول والممالك ، واتصل بهيئات وجماعات مختلفة الأجناس والمنازع جرياً وراء هذا الهدف القوى السامى .

وقد كان الأمير حريصاً على الكتابة طويل النفس فى المراسلة يمده روحه الحائر العالق بأهداب المجد ، بالجلد والمواظبة على هذا الجهد ، فلا يقف عند الكتابة ، والتصنيف فى الموضوعات التى يهواها .

وأمر واحد لم يشتهر به شكيب أرسلان هو الخطابة ، فلم يؤثر عنه مواقف خطابية ذات خطر ، ولعل لانقضاء أمد طويل عليه يطوف فى البلدان ، ويتنقل فى المهاجر ، حاملا رسالة البعث العربى الإسلامى وفى قلبه إيمان راسخ ، وفى يده قلم عسال ، مما احتسبهما لخدمة بنى أمه خدمة نصوحاً ، جعله أن يقنع بعيداً عن المنابر .

والميزة التى اشتهر بها الفقيد الجليل وستخلد آثاره على وجه الزمن هذه الإحاطة المدهشة بأحوال العرب وشؤون المسلمين

تحت كل كوكب ، ومن شواهد هذه الخصيصة تعليقاته على كتاب : (حاضر العالم الإسلامى) لستو دارد الأمريكى ، فإن حواشيه وشروحه والفوائد التى علقها على متن مترجمه الأستاذ عجاج نويهض للكتاب تستوعب مجلدين كبيرين من كتب اليوم وفيها من صفة ديار العرب والمسلمين وأوضاع أهليها ما قلما تعثر عليه فى مظنة أخرى . وفى هذا السفر صفحات لامعة كتبها علامتنا فى الترجمة لجماعة من زعماء الشرق عرفهم وخبرهم بنفسه ما يكشف عن مغاليق حياتهم ويوجد مفتاح شخصيتهم ، كما شحن الكتاب بذكريات له عن أطوار فى سياسة الشرقيين ، ووثبات التحرر والانعتاق فى ربوعهم .

ومما ألح فى هوايته فى سنيه الأخيرة وقد ساقه إليه شغفه بحب قوميته وإعجابه بحضارة أمته فى الأعوام المطوية (تاريخ الأندلس) بعد أن خلبت لبه آثارها الباقية فى بلاد المجد المفقود عندما وقف على مشاهدها فانصرف إلى تأليف كتابه النفيس : (الحلل السندسية) الذى طبع منه بضعة أجزاء ولما يتمه .

وشاء أن يسجل رحلته إلى البلاد المقدسة فى رسالة ممتعة هى (الارتسامات اللطاف). وحفزه وفاؤه لإخوانه وبره بأصدقائه إلى وضع كتاب : (السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما) . تقف فى تضاعيفه على مراحل فكرة الجامعة الإسلامية والثورة العربية ، وكثير من مناورات دول أوربا وألاعيب الاستعمار فى هذه الرقعة من الشرق .

إن مخلفات الأمير شكيب وتصانيفه الخالدة كثيرة ، لا تستوعبها هذه الكلمة ، حسبى أننى أشرت إلى بعضها ، وعندى أن من واجب أصحاب المروءة ، وأعوان الفضل ، والقدرين للرجال أن تتألف منهم جماعة (لتخليد ذكرى أمير البيان) وأول عمل تتوجه إليه ، لإشادة بناء هذا التخليد البحث عن كتاباته ودراساته ورسائله التى لما تطبع ، فتطبعها فى كتب يتيسر اقتناؤها إحياء لذكراه ، وإتماماً لرسالته وتعزيزاً للفكرة العليا التى اهتدى بها الراحل العظيم فى جهاده .

ومن رسائله الطريفة التى تحمل فكرته الإصلاحية ما نشر بعنوان (لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم ؟) وهى فصول كتبها المصلح الإسلامى جواباً على اقتراح من الشيخ محمد بسيونى عمران إمام مهراجا جزيرة سيلس برنيو (جاوه) ، بأن يكتب لمجلة (المنار) فى أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر وأسباب قوة الإفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة ، فكتب شكيب رأيه ، وطبع فى كتاب مرتين بعد أن أذاعته المجلة الشهيرة .

يعتقد الأمير الكاتب فى بحثه التحليلى هذا أن عز المسلمين قام أول الأمر بالتمسك بآداب الإسلام الصحيح ، والاهتداء بهدى القرآن الكريم ، فلما فقد العرب والمسلمون هذه الحماسة وانحرفوا عن التعاليم القويمة ضعفوا وهانوا ، فلم يبق لهم اليوم سخاء الإفرنج فى المشروعات العامة ، والفداحة فى الذود عن حياضهم ببذل الدم والمال ، وإن من أول أسباب تقهقرهم فى العصور المتأخرة فقدانهم كل ثقة بأنفسهم رغماً عن مقدرتهم على العمل ، واستشهد على هذه القدرة على العمل بمشروعى إنشاء خط الحجاز الحديدى ونبوغ طلعت حرب باشا فى تشييد بنك مصر والأخذ بعصاميته ومعاونه الناجحة .

والسيد الارسلانى يؤمن بأن العلم كفيل ببعث الأمة ، العلم القائم على ركنين : العلم الطبيعى وعلم الدين . ومحصل نظريته فى نهضة الشرق العربى والأمم الإسلامية ، أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالتضحية أو الجهاد بالمال والنفس ، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ، وإن المغتلمين بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا من كبار رجال العلوم والفنون بل يكفى إذا أوتوا العقل السليم والإرادة النافذة ، والتوجه نحو الأعمال ، لا الاكتفاء بالتمنى والآمال .

وبين ثنايا الكتاب لشواهد وفرائد عن أحوال الناطقين بالضاد وأتباع محمد بالقياس إلى أمم أوربا الناهضة ما يقنع القارىء ويورى زناد الفكر عند من يطلع فيدرك فيتأثر .

وفق الله الأمة ، لتعمل بإرشاد رجالها المصلحين ، فتفوز وتسعد .

رفائيل بطى